عن الألقاب ... وأشياء أخرى[1]

تنبيه ذوي الألباب

إلى ضرورة الحفاظ على الألقاب

أصبت برعشة من الخوف وأنا أقرأ أن حكومة لبنان المُوقّرة قرَّرت إلغاء الألقاب. لا «فخامة» بعد اليوم، ولا «دولة»، ولا «معالي»، ولا حتى «سعالي» (وهذه كلمة نحتها اللغويون في المملكة للإشارة إلى أولئك الذين تجاوزوا مرحلة «السعادة» ولم يصلوا، بعد، إلى مرتبة «المعالي»، ومن سار على الدرب وصل). لِمَ رعشة الخوف من تقليد ديمقراطي جميل يذيب الفوارق بين عباد الله؟ أقول لكم السبب:

الألقاب قد تشغل حاملها عن إلحاق الأذى بالناس. وأضرب لكم بعض الأمثلة: الرجل الذي أباد عشرات الملايين في ألمانيا لم يكن يحمل أي لقب، كان مجرّد «فوهرر». والرجل الذي أباد، بدوره، عشرات الملايين

(١) عن «استراحة الخميس» المنشورة في الوطن (١٩٩٧م).

في أوربا كان ينفر من الألقاب، كان مُجرّد «رفيق». و«صاحبنا» في بغداد ليس له من لقب، أعني من لقب رسمي، سوى «السيّد الرئيس».

ثمة سبب آخر يجعلني أتخوّف من إلغاء الألقاب. في الشقيقة الحبيبة مصر كان بعض الناس، قلة قليلة، من الباشوات، وبعض الناس، قلة أكثر قليلاً من الأولى، من البكوات. ثم جاءت الثورة، وألغت الألقاب. ماذا حدث؟ هل انفجرت المساواة بين عباد الله الذين خُلقوا متساويين كأسنان المشط؟ لا! لم يحدث شيء من هذا. ماذا حدث إذن؟ تحول ٩٠٪ من الناس إلى باشوات، والبقية، من المعذبين في الأرض والمسحوقين، إلى بكوات.

وهذا ما سيحدث في لبنان بعد فترة من الزمن. سوف تسمع في بيروت من يقول لسائق التاكسي:

- تسمح يا فخامة الشوفير بإيصالي إلى المطار؟

ويرد فخامته:

- أهلين بعبدو الفرَّان، تكرم عين معاليكم!

وقبل أن أترك هذا الموضوع أقول لمن لا يعرف أن كاتب هذه السطور كانَ في مرحلة الديناصورات، من أصحاب المعالي. كان الكثير من المراجعين البسطاء لا يعرفون الفرق بين لقب ولقب ولا يفرقون بين اللقب الأعلى واللقب الأدنى. وكان هؤلاء يلجأون إلى الاحتياط عند كتابة المعاريض. الكثير من الرسائل التي كانت تصلني كانت «موجهة إلى «حضرة جناب سيادة سعادة المكرم السيد الأستاذ الدكتور معالي..». يا للنشوة التي كانت تنتابني! يشعر الإنسان أن له «حضوراً» طاغياً «وجناباً» عالياً، وأنه يتمتع «بالسيادة» المطلقة علاوة على «السعادة» العارمة، وأنه، بعد ذلك كله، «أستاذ» و «دكتور» وجمع «المعالي» من أطرافها. كنت أقرأ وأضحك من الأعماق. ألم أقل لكم، قبل قليل: إن الألقاب تشغل حاملها عن إلحاق الأذى بالناس؟!

حوار الألفية القادمة

معي

س: ما هي عيوبك؟

ج: الطيبة والسخاء والشجاعة والشهامة والتواضع.

س: وما هي نقاط ضعفك؟

ج: الإيثار والتسامح والبعد عن الأضواء.

س: ما رأيك في التطبيع؟

ج: أعتقد أن الجو جميل جداً هذا الصباح.

س: مَنْ هو شاعرك المُفضَّل؟

ج: الأستاذ يوسف الشيراوي.

س: ومَنْ هي شاعرتك المفضَّلة؟

ج: بنت المستكفي، التي كانت تلد بكثرة.

س: ماذا ستفعل لو مُنِحْتَ جائزة نوبل؟

ج: أوافق على الفور.

obeikandl.com

س: كيف تكتب؟

ج: أضع قلم الحبر، بعد أن أملأه حبراً، في يدي اليمنى، وآخذ نفساً عميقاً، وأصرخ: "يارب تجي في عينو"، وأبدأ.

س: وكيف تَنْظمُ الشعر؟

ج: في معظم الحالات، وأنا واقف على رجل واحدة.

س: مَنْ هو مطربك المفضَّل؟

ج: الأستاذ يوسف الشيراوي.

س: هل أنت من أنصار العولمة؟

ج: أنا من أنصار الضولمة.

س: وهل تحبّذ الخصخصة؟

ج: أفضِّل البصبصة.

س: وماذا عن الخوصصة؟

ج: استحي يا مدموزيل!

س: ما هو الكتاب الذي تقرأه حالياً؟

ج: "البامية والباذنجان. . في تحضير الجان"، وهو من تأليف الأستاذ يوسف الشيراوي.

س: أين تَحلِق شعرك؟

ج: أحلق (ما تبقى من) شعري في صالون الحلاقة في فندق "الدورشستر". وأخرج كل مرة محمَّلاً بالكآبة؛ نتيجة القصص المأساوية التي يرويها الحلاق اليوناني.

س: ألا تستعمل الباروكة؟

ج: يا دملك!

س: أين تفصِّل بدلك؟

ج: لا أفصِّلها. تشتريها أم العيال من محل في "نايتزبريدج" متخصص في بيع الملابس لمعتدلي القوام.

س: مَنْ هو مثلك الأعلى في الأناقة؟

ج: الأستاذ يوسف الشيراوي.

س: شخصيتك التاريخية المُفضَّلة؟

ج: الشاويش عطية.

س: كم وزنك؟

ج: سوف أجيب عن هذا السؤال عندما أطلب منك أن تحمليني على أكتافك.

س: ما هي أكلاتك المفضَّلة؟

ج: الكبسة فالمكبوس فالمحمّر فالمرْبين فالجريش فالسليق فالمطازيز. فيما عدا ذلك، أنا على رجيم.

س: كيف تجد الوقت الكافي للكتابة؟

ج: بالاستغناء، نهائياً، عن الأكل والشرب والنوم والراحة والعمل والكلام والتنفس والمقابلات الصحفية.

س: ماهو شعورك ونحن ندخل الألفية الجديدة؟

ج: نفس شعوري ونحن لم ندخلها؟

س: سؤال أخير نريد الإجابة عنه بكل صراحة: وجهك التلفزيوني المُفضَّل؟

ج: الأستاذ يوسف الشيراوي.

obeikandl.com

رسالة شبه مفتوحة

إلى عذراء الصيف الأسطورية

كُنتُ قلتُ لكِ، أيام مراهقة الشمس وصبا القمر وطفولة المساء: إن الأشياء لا تدوم على حالها، إن الأوراق تتساقط من الشجر، وإن العنادل تتعب من الصداح، وإن المواسم تتغيّر.

كنتُ قلتُ لكِ، أيام الجنون اللذيذ: أن الجنون، قصير العمر، يأتي بغتة، ويذهب بغتة، وبعد أن يرحل الجنون تأتي الحكمة مُحمَّلة بألف عذر وعذر. آه! الأعذار التي تزدهر، بلا إنذار، كالأعشاب الشيطانية.

وكنتِ تقولين، -كان ذلك قبل أن تتعلمي بلاغة الإيجاز-: إنه لا شيء يستطيع أن يمسَّ هذه الحديقة التي تضمُّنا، الحديقة التي تشتعل بالورود الحمراء وبأزهار الدفاديل - لا شيء!

أنشدْتُكِ، في تلك الأيام المشتعلة، القصيدة التي ترجمتُها لبيرون:

إذن، لن نهـيم مـعـاً في الدروبِ

ونُوغل في الليل حـتّى السَـحـرْ

برغم الحنين بهـذا الفـؤاد

ورغم البـريق بذاك القـمـرْ

* *

فـقـد أكل السـيفُ من غـمـده

وقـد أضنت الرُوح قلبي الجـريحْ

فـلا بُـدّ لـلـقـلـب من هـدأةٍ

ولا بُدّ لـلحُـبّ أن يسـتـريحْ

* *

قـصـيـرٌ هو الليل.. ليل الغـرام

قـريبٌ هو الصـبح.. صـبحُ البـشـرْ

ولـكـنـنـا لـن نجـوب الدروب

ونوغل تحت شـعـاعِ القـمـرْ

obeikandl.com

لم تعجبكِ الفكرة: أن يتعب القلب فلا يخفق مع خفقان القمر. كنت، أيتها الأميرة الأسطورية، تقولين وقتها: إن الحنين لا يذبل، وإن الزهور لا تذبل. وكنت أستمع إليك، وأنزف دماً من الداخل، وأنا أذبل.

هناك، حقاً أشياء لا تذبل. أعرف وردة لا تذبل. وتعرفينها أنت لأنها جاءت هدية منك ذات صباح دافئ. وأنت تعرفين أنها لا تذبل لأنها مصنوعة من الفضة. الوردة الفضية لا تزال كما كانت، ولكن ماذا عن العبير؟ هناك بقايا البقايا، ذكرى الأصابع التي حملتها لي ذات يوم.

كنت تتحدثين عن «السحر» وعن «العين». «السحر» الذي يشير بيده فيرقص القلب. و «العين» التي تنظر فتوقف دقات القلب. لم أشأ، وقتها أن أبوح لك بسرّ تعلمته منذ قرون من ساحرة عجوز: «السحر» لا يعمل إلا في الصيف، و «العين» لا تنشط إلا في «الخريف».

أنظر إلى وردتك الفضية وأبتسم. أتصوركِ، وردتي الحقيقية، بعيداً عني تمنحين الناس أجمعين رعشات البهجة والأمل والسعادة. لكِ، ولأزهار الدفاديل، مودّتي التي لا تذبل.